هل أصبح الإنترنت وسيلة تؤثر على الأطباء؟

أ.د. محفوظ عبد الله بامشموس

استشاري وأستاذ مشارك في طب وجراحة العيون – جامعة صنعاء

زارني عدد كبير من المرضى وقالوا قرأنا في الانترنت عن هذا المرض وهذه العملية ونجاح هذه العملية ومضاعفات هذه العملية فأصبحت أسأل ..... هل أنت من مستخدمي الانترنت فمواجهة هذه النوعية من المرضى تحتاج إلى معلومات أكثر ووقت أكثر مع المريض ومرافقيه.

عبر الإنترنت يمكن لأي شخص شراء الفيتامينات والمواد والأجهزة الطبية والفياجرا، فهل سيأتي يوم يصبح فيه الإنترنت طبيباً معالجاً؟ وهل سيأتي يوم نرى فيه مواطناً خلع ملابسه وقام بالوقوف أمام كاميرا الإنترنت ليقول لصفحة ما أو موقع صحي ما في مكان ما على المعمورة: (دكتور.. إنترنت ألحقني).

تكشف ثورة الإنترنت تدريجياً إنجازات علمية وتكنولوجية تحقق ما كان بالأمس القريب أقرب إلى الخيال من الواقع. وأخيراً، انضم إلى تلك السلسلة، نظام (العناية الصحية الذاتية عن بعد). وتفيد المواقع الإلكترونية المتخصصة في (الصحة عن بعد) أن المريض لم يعد في حاجة إلى زيارة الطبيب في عيادته، ولا لتحمل مشقات الذهاب والإياب والانتظار الطويل، بل إن الطبيب هو من يأتي إلى المريض؛ فقد كشفت دراسة أمريكية صدرت مؤخرًا عن مدى تغلغل الإنترنت في حياة الأمريكيين ودخوله حتى في خصوصياتهم الصحية، حتى إن البعض أصبح يستريح عند البوح بأسراره للمواقع الصحية.

يفسح هذا (الفتح) الجديد في عالم الطب والرعاية الصحية المجال أمام المرضى الراغبين في استشارة الطبيب أو الحصول على وصفة طبية لعلاج ما يشكون منه، أن يبادروا إلى زيارة أحد المواقع الإلكترونية المخصصة لهذه الأغراض مجاناً. ونشرت صحيفة أمريكية في يناير 2008م أن 55 % (أي 52 مليون متصفح) من إجمالي مستخدمي الإنترنت في الولايات المتحدة الأمريكية يتصفحون مواقع صحية بحثًاً عن معلومات وبيانات تتعلق بالصحة والمرض، وقد أطلقت الدراسة على هؤلاء اسم (الباحثين عن الصحة)، وهذا يعنى أن نصف متصفحي الإنترنت باتوا أقرب للتعامل مع الإنترنت كمرجعية هامة للصحة والطب والعلاج.

وتوضح إحدى الدراسات أن ذلك يعود إلى مميزات الإنترنت، وهي:

- وسيلة متاحة ليلاً ونهارًا، يمكن الدخول إليها من أي موقع به إنترنت، ولا يشترط له مكاناً معيناً مثل الكتب والدوريات التي يضطر المرء إلى الذهاب إليها في أوقات محددة، وقد يجد بغيته أو لا يجدها.

- عبر الإنترنت لا يضطر المرء للكشف عن هويته، ويمكن للمتصفح أن يظل يبحث عشرات ومئات المرات دون التعرف على هويته، اللهم إلا إن تعلق الأمر بخدمةٍ طبيةٍ يتم بيعها كالحجز لدى طبيب أو عيادة أو مستشفى، أو شراء مواد طبية عبر الإنترنت مثل الأدوية والفيتامينات والأجهزة التعويضية مثلاً.

- الهاجس النفسي الكبير لدى الأشخاص خاصة تجاه الأمراض النفسية؛ فقد كشفت الدراسة أن نسبة كبيرة (26%) من الباحثين عن الصحة يبحثون عن معلومات وبيانات ومواد تتعلق بالأمراض النفسية كالإحباط والقلق.

أن اللجوء إلى الإنترنت بقصد العلاج يمثل (سلاحاً ذو حدين) كل منهما أخطر من الآخر، على الطبيب والمريض معاً. فمن جهة، تلغي الشبكة الإلكترونية اللقاء المباشر مع المريض وتبادل الحوار والمعلومات معه وجها لوجه، كما أن التشخيصات التي يبديها أطباء الإنترنت ليست (دقيقة ولا علمية ولا طبية وقد تخلف وراءها في حال اعتمدها المريض آثاراً خطيرة على صحته وربما تودي بحياته أيضاً).

ومن جهةٍ أخرى فإن (العلاج عبر الإنترنت) يقلب القاعدة الصحية رأساً على عقب، فيصبح المريض طبيباً ويتحول الطبيب إلى مجرد دليل أو مرشد صحي، في هذه الحال يتوهم المريض أنه عاين نفسه بنفسه وعرف علته وقرأ ما يلزمه من أدوية وعلاج، بل يقرر الأخذ بهذه المعلومات أو يتجاهلها وبالتالي لا حاجة لذهابه إلى عيادة الطبيب المختص.

كما أن ثمة بُعدٌ هامٌ وخطير يتمثل في تحكم المعلومات والبيانات التي يحصل عليها الباحث عن الصحة عبر المواقع الصحية في قرار الشخص فيما يتعلق بالصحة، وكلما زادت المعرفة بالإنترنت زاد عدد زيارات المواقع الصحية، وبالتالي تأثر قرار المتصفح بالكم الهائل من البيانات والمعلومات، فعلى سبيل المثال بعض المرضى يعودون للطبيب المعالج ويقومون بتوجيه أسئلةٍ جديدة، ومناقشته في التشخيص وطرق العلاج، وهذا حسن طريقة اهتمام الناس بالرعاية الصحية.. ومقارنة المعاينة المباشرة والمعاينة الافتراضية، فيمكنك أن تشخص المرض بدقة إذا ما جلست مع المريض وجهاً لوجه وتقول له أنت مريض بكذا وكذا وتكتب له وصفة طبية لاستعمالها وفق الإرشادات المدونة فيها، أما في العيادة الافتراضية فالتشخيص ليس دقيقاً، وكأنك تقول للمريض أنت أمام احتمالات متعددة وأمام أدوية متعددة فاختر ما تراه مناسباً لك!، في حين أنه لا يجوز للطبيب الافتراضي أن يعطي وصفة طبية، فهذا يعني أن قرار الطبيب لم يعد ملزماً للمريض وبالتالي فإن (وجوده وعدمه سيان).

رغم أن الإحصاءات الطبية تشير إلى أن إمكانية الشفاء عن بعد لا تتعدى 25% (رغم أن معظمها تتعلق باستشارات طبية) في حين تتجاوز 80% في المعاينات الشخصية المباشرة.

واللوم يعود على الأطباء العاملين في المواقع الإلكترونية، فهم سيتحملون نتائج بعض التشخيصات التي قد تؤدي ببعض المرضى إلى حالات مأساوية، فضلاً عما قد يرتكبونه من أخطاء تسيء إلى مكانة الجسم الطبي واهتزاز الثقة به.

وعلى أية حال يبدو أن (التطبيب عن بعد) لم يرتق حتى الآن إلى مرتبة علمية ذات مصداقية عالية، ولم يصبح تداوله شائعاً في الأوساط والدوائر الصحية العالمية، وما يزال العمل به محدوداً على نطاقٍ ضيق لا يتعدى إسداء النصح والاستشارات. وإضافة إلى ذلك فإن من يلجئون إليه قلة ممن يجيدون استعمال الإنترنت، مما يعني أن شريحة كبيرة من المرضى لا سيما المسنين والأطفال، يبقون خارج (العيادات الافتراضية).

ولا بد من الإشارة إلى أن ما سبق لا يمثل سوى جزءاً بسيطاً من أثر دخول الإنترنت إلى مجال الرعاية الطبية بصورة مباشرة. وثمة مجالات أخرى تمثل جانباً إيجابياً ونجاحاً كبيراً للمعلوماتية، كالملفات الإلكترونية، وحفظها وأرشفتها ودعمها بالصور والفحوص، وفي الآونة الأخيرة، تدأب الشركات المعلوماتية على تطوير أدوات ذكية تساعد الأطباء والممرضين على الاستفادة من الشبكات الطبية وقواعد البيانات والأرشيف بصورة سهلة، وقرب سرير المريض مباشرة.

فتأثير الانترنت في مجال الصحة أصبح واضحاً ولذلك ينصح لكل مستشفى أو مركز القيام بإنشاء موقع خاص يمكنه تلبية احتياجات مستخدمي الإنترنت ومتصفحي صفحاته ومواقعه وعلى الأطباء متابعة كل جديد لمواجهة جيل المرضى ومرافقيهم الواعين بالمشاكل الصحية والطرق الناجعة لعلاجها.